التيار البدوي والمعجم الشعري في حجازيات الشريف الرضي

يعد الشعر فن من فنون اللغة العربية ، فيقوم على مفرداتها وتركيباتها بناء التشكيل الشعري ، وتنهض مفرداتها وتركيباتها بحمولة من المعاني ومعنى هذه المعاني ، فاللغة والمضمون متلازمان فهما المكونان الرئيسيان للبناء العام للنص الشعري ، والدراسة اللغوية للعمل الشعري تسهم بنصيب وافر في كشف هذا التماسك للبناء الشعري للنص .

ويستطيع الشاعر بفطنته ومهاراته في اللغة " أن يسيطر على تشكيل لغته فهي كائن حي يتطور عند الاستعمال بحسب قوة الانفعال ودرجة العاطفة " ([1]) ، وبذلك تتلاحم كل من الفكرة والعاطفة والخيال والأداء التصويري في النسيج اللغوي .

والنسيج اللغوي فهو تصوير بالكلمات لأفكار الشاعر وحصيلة لمغامرات خياله ، وتدخل الأحاسيس والمشاعر والأفكار وكل العناصر الشعورية والذهنية في تشكيل مفردات اللغة لدى الشاعر في تشكيل البناء العام لقصيدته ، فهذه العناصر هي البناء القابض على لغة الشاعر " بحيث إذا تقوض البناء اللغوي في الشعر تقوض معه الكيان النفسي والشعوري المتضمن فيه " ([2]).

ولابد أن تكون اللغة نابضة بروح العصر ، فلكل عصر لغته ، ولكل وضع اجتماعي وحضاري أسلوبه الذي يتناسب واتجاهاته الفكرية سواء أكانت سياسية أم ثقافية ، تبعا لتطور الحياة التي يعيشها الشاعر وما يحمله فيها من رؤى متغيرة ومتجددة فتتدفق اللغة مفعمة بحرارة التجربة بحيث تستطيع استيعاب تلك التجارب وإيصالها إلى المتلقي ، وتعتبر الكلمة في الشعر " ليست مجرد وسيلة في عملية التعبير الشعري ، وإنما هي طاقة إيحائية وتعبيرية تتجاوز ما تعارف عليه

---

[1] بناء القصيدة الوجدانية عند شعراء المدينة المنورة المعاصرين ، رحمة مهدي علي الريمي ، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى ، السعودية ، ط ٢٠٠٥ ، صـ ١٠٥ .

[2] عن بناء القصيدة العربية الحديثة ، للدكتور علي عشري زايد ، مكتبة ابن سينا للطباعة والنشر والتوزيع والتصدير ، ط ٤ ، ٢٠٠٢ ، صـ ٤٢ .

الناس ... " ([1]) . والعبارات في الشعر يقصد بها " بعث صور إيحائية ، وفي هذه الصورة يعيد الشاعر إلى الكلمات قوة معانيها التصويرية " ([2]) .

وتعتبر اللغة وجه من أوجه النشاط الإنساني التي من خلالها يستطيع الإنسان التواصل بينه وبين العقد الاجتماعي الذي يمثل فيه الإنسان لبنة في هذا البناء وبها يعبر عما يجول بخاطره من تيارات فكرية وصراعات داخلية تجاه الأحداث التي يتعرض بها .

واللغة " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم " [3] ، ولكل لغة نظامها الخاص في تركيب ألفاظها " ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعنى نوع من الأسماء " ([4]) .

اللغة العربية كأي لغة قائمة على حروف ، والحروف أصوت لها صفات وألقاب ومخارج ، " والوحدة الصوتية بنية أساسية في بناء العمل الفني ، والصوت أصغر وحدة إيقاعية يعتمد عليها الأديب ، ويحاكي به الحدث والانفعال حتى يؤثر في المتلقي " ([5]) ، ويدل الصوت على الحالة الشعورية للإنسان أثناء الكلام لأنه يكون معبرا ومؤثرا وموصلا " والبناء الصوتي في القصيدة هو جزء لا يتجزأ من دلالتها وليس في تكوينها العام فحسب بل في بناء كل جملة لغوية فيها وفي علاقة هذه الجملة بما يليها " ([6]) ، وهي علاقة إيقاع ودلالة وتتضافر الأصوات لتدل على

---

[1] فنية التعبير في الشعر الجديد ، سعد الحاوي ، مطبعة الأمانة ، ط ١ ، ١٩٨٨م ، صـ ٣٩ .

[2] النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٩٧ ، ٣٥٧ .

[3] الخصائص ، ابن جني ، جـ ١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ٤ ، صـ ٣٤ .

[4] الحيوان ، للجاحظ ،تحقيق : عبدالسلام محمد هارون ، جـ٣ ، ط ١ ، الحلبي ، مصر ١٩٤٣ ، صـ ٣٩ .

[5] البداوة في شعر المتنبي ، من حيث المضمون والشكل ، السيد عبد الماجد محمد علي ، رسالة ماجستير كلية الأداب ، جامعة المنصورة ، ١٩٩٧م ، صـ ٢٢٨ .

[6] الصورة والبناء الشعري ، محمد حسن عبدالله ، دار المعارف ، القاهرة ، صـ ١٧٩ .

المعنى الذي يحاكيه الأديب ، وذلك " لأن الشعر ليس تعبير عن الحياة ، وإنما هو تعبير عن اللحظات الأقوى والأملأ بالطاقة الشعورية في الحياة " ([1]) .

والوحدات الصوتية التي نجدها في حجازيات الشريف الرضي التي تمثل الطابع البدوي نجدها تحاكي الأحداث والقضايا البدوية التي كثيرا ما ترددت في حجازياته ذات الطابع الغزلي ، ومن هذه الوحدات الصوتية :

صوت الهمزة :

وهو صوت حلقي انفجاري وهو أيضا من الأصوات الشديدة الذي يمتنع الصوت أن يجري فيه ؛ لكمال قوة الاعتماد على مخرج الحرف ([2]) ، وقد استخدمه الرضي في ارسال التحايا والسلام عند ذهاب الحجاج إلى الحج وهو يرسل شوقه وحنينه إلى هذه الأماكن المقدسة التي تعد معلم من معالم البداوة ففيها يقول :

حيٍّ ، بين النقا وبين المصلّى ، وقفات الركائب الأنضاء

ورواح الحجيج ليلة جمعٍ ، وبجمع مجامع الأهواء

وتذكر عنّي مناخ مطيّي بأعالي منًى ومرسى خبائي

وتعمّد ذكري ، إذا كنت بالخيـ ـف ، لظبيٍ من بعض تلك الظباء ([3])

ولعل أهم ما يميز حجازياته أنه قد اعتمد على ذكر أسماء الأماكن التي يمثل الطابع البدوي في هذه الأبيات مرور الركب بالمناطق البدوية وإرسال أشواقه ويوصي بالتعمد على ذكر اسمه أثناء المرور على الظبيات وهو الرمز الذي يرمز به في كثير من قصائده للمحبوبة .

---

[1] النقد الأدبي أصوله ومناهجه ، دار الشروق ، ط ٥ ، ١٩٨٣ ، صـ ٥٦ .

[2] مخارج الحروف عند ابن جني ، جمع وترتيب : بندر بن عبدالله الثبيتي ، جامعة الطائف ، ١٤٢٩ هـ ، صـ ٥ .

[3] ديوان الشريف الرضي ، دار بيروت للطباعة والنشر , بيروت ,١٩٨٣ جـ ١ ، صـ ٣٥ .

صوت الباء :

وهو صوت انفجاري شديد مجهور لأنه أشبع الاعتماد في موضعه – أي على مخرج الحرف – ومُنِع النفَسُ أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت ([1]) ، استخدمه الرضي في وصف البرق على أنه ضحك من شدة الشوق واللوع الذي كان يرسله الرضي :

سرى لك من أوطانه كل عارض تضاحك فيه البرق وهو قطوب

ولا زال خفاق النسيم مرقرقاً عليك ، وأنواء الغمام تصوب ([2])

فهو يمدح محبوبته على أنها قد سرى لها كل من له داء وأنه في يدها الدواء ، ومن المعلوم أن البرق سمة من سمات البداوة التي كثيرا ما وردت في حجازيات الشريف الرضي وأيضا ذكر هنا عدة سمات بدوية منها أنواء الغمام وهو السحاب والنسيم وهي ريح هادئة باردة ، فاستخدم الرضي هذه الألفاظ مع صوت الباء ليعبر عن مدى محاكاة صوت الباء ومعاني البداوة .

صوت الجيم :

وهو صوت جهوري شديد ([3]) استخدمه الرضي ليناسب القوة والسرعة الذي يمتلكها الجواد فيقول :

خلّقت عُرف جواده بنجيعه ، والسبق في طلق الرّدى لجوادي ([4])

فهو يحاكي سرعة جواده وسبقه على غيره ، ومن المعلوم أن الجواد من الحيوانات التي يستعملها البدوي أثناء سفره أو أثناء تنقله من مكان إلى أخر فهو من الدواب التي دائما ما يتفاخر البدوي بامتلاكها وبركوبها لأنها تدل على الشجاعة والكرم والأخلاق الرفيعة لكل من

---

[1] مخارج الحروف عند ابن جني ، صـ ٥ .

[2] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ١٧٥ .

[3] مخارج الحروف عند ابن جني ، صـ ٥ .

[4] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٣٣٨ .

يمتلكها وهي أيضا أحد الأشياء المهمة التي يستخدمها المحارب أو الفارس أثناء خوض أي معركة أو غارة على الأعداء .

صوت الراء :

فعند النطق به يرتعد رأس اللسان وتوصف الراء بالتكرير لقابليتها له إذا كانت مشددة أو كانت ساكنة فـ " الراء صوت مكرر ، لأن التقاء طرف اللسان بحافة الحنك مما يلي الثنايا العليا يتكرر في النطق بها كأنما يطرق طرف اللسان حافة الحنك طرقا لينا يسيرا مرتين أو ثلاثا لتتكون الراء العربية " ([1]) .

وهو أيضا صوت جهوري تكراري ([2]) استخدمه الرضي في الألفاظ البدوية التي تدل على الطبيعة وما بها من برق ورعد فيقول :

لا زال جيب الليل منفصم العرى عن كل أوطف مبرق مرعادِ ([3])

فالترديد في حرف الراء يتوافق مع الحال الذي يصبو إليه الشاعر ، وذلك لأنه حرف مهجور بطبيعته المكررة لميزاته اللغوية ، فمبرق ومرعاد سمة من سمات البداوة الطبيعية للدلالة على البرق والرعد فالتكرير يحاكي معاني البداوة في هذا البيت .

صوت العين :

وهو من الحروف المتوسطه بين الرخاوة والشدة وذلك من عدم كمال احتباس الصوت ، وعدم كمال جريه ([4]) ، استخدمه الرضي ليوحي به مدى الشوق والحنين الذي كان ملازما لناقته حتى غلب شوق الناقة عن شوقه إلى البلاد التي بها المحبوبة فيقول :

أقول وما حنت بذي الأثل ناقتي : قري لا ينل منك الحنين المرجع

---

[1] الأصوات اللغوية ، د. إبراهيم أنيس مطبعة الأنجلو ، القاهرة ، ١٩٩٥م ، صـ ٧٤ .

[2] مخارج الحروف عند ابن جني ، صـ ٦ .

[3] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٣٣٧ .

[4] مخارج الحروف عند ابن جني ، صـ ٥ .

تحنين إلا أن بي لا بك الهوى ، ولي لا لك اليوم الخليط المودع

وباتت تَشَكّي تحت رحلي ضمانة ، كلانا ، إذا ، يا ناق نضو مفجع ([1])

فاستعمل الرضي الناقة وهي التي دائما يستعملها البدوي أثناء ترحاله ، وأنها تحن إلى الديار بعد أن خرجت منها فيثبتها الرضي من شدة شوقها ويكلمها الرضي على أنه هو الذي به الهوى وليست الناقة ، وفي أثناء نزوله بالركب فباتت الناقة تشتكي هذا الداء الذي صاب الرضي نفسه وهو داء الفراق وأخيرا أكتشف الرضي أن داء الهوى قد صاب أيضا الناقة .

ولا ننسى عفاف الرضي فقال :

خلونا فكانت عفة لا تعفف ، وقد رفعت في الحي عنا الموانع

سلو مضجعي عنّي وعنها ، فإننا رضينا بما يخبرن عنّا المضاجع ([2])

فهو يصف خلوة من إحدى خلواته الخيالية وكأنه فارس لا يهاب حتى من أن يخبّر الناس بهذه الخلوة فيقول :

سلو مضجعي عني وعنها ، فإننا

فيعبر الدكتور زكي مبارك بقوله " فإلى من توجه هذا الكلام أيها الفاجر العفيف ؟ وما رأيك إذا خبرناك أننا سألنا تلك المضاجع ، فأنبأتنا أن أكاذيبك الطريفة لن تمنع من دخولك الجنة مع الصادقين " ([3])

صوت الياء :

فالياء يتشكل صوتها في جوف الفم مترادفا مع حركة الفك السفلي باتجاه الصدر مما يشير إلى تحت ، ويسمى صوت الياء بالرخو لأنه " يجري فيه الصوت لضعف الاعتماد على مخرجه

---

[1] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٦٥٣ .

[2] المصدر نفسـه . جـ ١ ، صـ ٦٥٨ .

[3] عبقرية الشريف الرضي ، مطبعة دار الجبل ، بيروت ، ١٩٨٨م ، صـ ٣٠٦ .

مع نَفس قليل ، وذلك في الرخو المجهور، أو كثيرٍ وهو في الرخو المهموس " ([1]) فيقول الرضي :

أيا أثلاث القاع كم نضح عبرةً لعيني ، إذا مرّ المطيُّ بذي الأثل

و يا عقدات الرمل كم لي أنّةٌ ، إذا تذكرت الشقيق من الرمل

و يا ظُعُنات الحيّ يوم تحمّلوا ، عقرت ، وأفنى الله نسلك من إبل

و يا ظبيات الجزع يسنحن غدوة ، لقد طلّ من ترشُقن بالأعين النُّجل ([2])

فالرضي جمع في هذه الأبيات جمالية أسلوب النداء والتماثل الصوتي الذي ينبثق من شبكة العلاقات المعنوية بين الكلمات وهي تؤسس لصورة سياقات ومقاصد يجتهد المتكلم في إيصالها إلى المخاطب دون الحاجة إلى جواب ، فالبداوة في هذه الأبيات تتمثل من خلال محاكات أسلوب النداء لبعض الألفاظ البدوية بما فيها عقدات الرمل وظُعُنات الحيّ وهي الجمال التي يظعن ليسافر عليها ، وظبيات الجزع وهي مجموعة من الغزلان ويقصد بها الرضي مجموعة من الحسناوات فبهذه الألفاظ البدوية ازداد اسلوب جمالا فحاكى الرضي من خلالها معاني البداوة .

ونلاحظ من خلال ما سبق أن الرضي قد استخدم بعض الأصوات مما يحاكي الأحداث ومعاني البداوة ، فنجده قد استخدم في حجازياته الوحدات الصوتية التي تحاكي الأحداث والقضايا البدوية وبما فيها من أصوات للحروف تعبر الشدة واللين وعن المهجور والمهموس وعن القوة والغلظة التي يتسم بها كل أبناء البادية فقد استخدمها الرضي في عدة قضايا بدوية منها ما استخدمه في ارسال التحايا والسلام ، ومنها ما استخدمه في وصف البرق وهو من السمات البدوية الطبيعية ومنها ما استخدمه في وصف القوة والسرعة التي يمتلكها الجواد ، ومنها ما استخدمه في وصف حنين الحيوانات إلى بعض الأماكن فصورها على أن شوقها وحنيها أكثر من شوقه إلى الأماكن البدوية التي زارها والتي يوجد بها العديد من المحبوبات ، ومنها ما

[1] مخارج الحروف عند ابن جني ، صـ ٥ .

[2] ديوان الشريف الرضي ، جـ ٢ ، صـ ٢٢٦ .

استخدمها في وصف الطبيعة الصامتة وما بها من جبال ووديان وغيرها ، كما نلاحظ أيضا قد استخدم بعض الأصوات ليعبر بها عن مدى طهارته وعفافه ، فنجد تلك الاستخدامات في حجازيات الشريف الرضي تمثل طابعا بدويا عايشه الرضي من خلال ذكره لهذه الأصوات .

وبعد أن تحدثنا عن محاكاة الرضي لبعض الأصوات التي تحاكي الأحداث ومعاني البداوة ننتقل إلى الألفاظ البدوية التي استخدمها الرضي في حجازياته التي تحاكي كل من :

" الدلالة الرمزية ، الطول والدلالة للبادية ، السهولة والإيضاح ، وبداوة الحقول الدلالية في حجازيات الشريف الرضي " .

الألفاظ والبداوة :

تعتبر اللغة جزء من إحساس الشاعر فهي الأداة التي يستطيع من خلالها أن تكون وسيطة بنه وبين المتلقي ، واللفظة الواحدة في اللغة تحمل في سياقها دلالة متطورة عبر التاريخ والوجود الإنساني ، وتستمد دلالات جديدة نابعة من الشعور الداخلي للمبدع ،فتصبح رموزا لعواطفه وأفكاره وأحاسيسه التي تشكل عالمه الخاص.

ومن سمات الشعر أن يعتمد الشاعر في شعره على اختيار حسن الألفاظ التي تدفعه بالحديث عن الحياة المحيطة به من فرح وحزن وألم وشوق وفراق ... إلخ ، وأن تكون هذه الألفاظ يجمع بينها إيقاعا موسيقيا مع الجانب الوجداني للأديب ، ودلائل الكلمة تتفاوت حسب السياق الذي تدخل في إطاره ، وأحيانا تخرج الكلمة عن معناها المعجمي إلى معان دلالية متنوعة تدخل في إطار حقل دلالي معين ، فأداة الشعر " تتكون من كلمات دالة تحتوي على معان مباشرة حسب نوع العلاقات التي تنتظم فيها ، وارتباط الأداة الشعرية بنظام متميز من الدلالة ، لا يجعل من الوزن الشعري مجرد محاكاة لفن موسيقي ، بل يجعل موسيقى الشعر نابعة من طبيعة أداته الخاصة من حيث الإمكانات الصوتية لهذه الأداة " ([1]) .

[1] مفهوم الشعر ، د. جابر عصفور ، صـ ٣٠٢ .

والشريف الرضي في اختيار ألفاظه لم يكن يجهل ما لقيمة هذه الألفاظ من أثر في تشكيل المعاني المرادة والدلالات التي تشع منها فهو إذ يضعها يتحسسها بحس شعري مرهف مكنته إياه ثقافته الواسعة واطلاعه العميق على نتاجات العرب في الجاهلية حتى عصره ، عارفا بتطور الأساليب والعلامات المتميزة في مسيرة الشعر العربي ، فكان دقيقا بصيرا في صياغته الشعرية ، لم يبتعد عن أساليب القدماء ولكنه كان يتخذ منها منطلقا نحو حداثة هو مبتدعها ومشكل هويتها .([1])

والرضي بهذا الأسلوب في اختيار ألفاظ قد نهل من القديم والجديد ولعل أهم ما يميزه أنه كان حظ عجيب من المعجم الفصيح مما مكن أسلوبه القوي في اختيار ألفاظه .

ومهما يكن فإن الطابع البدوي يعد السمة المهمة في حجازيات الشريف الرضي فكان لها حظ وافر من اختيار ألفاظه ذات الصلة بهذا الطابع وإذا ما تصفحنا حجازياته فإننا نجدها مليئة بتلك الروح البدوية .

ومن الجدير بالذكر عندما تقرأ قصائد الحجازيات لا تحس بأن هذا الشاعر قد عاش الرقي والحضارة الإسلامية في بغداد آن ذاك بل ستحس أنه شاعر بدوي أنتهل من منهج الأقدمين في الوقوف على الأطلال ، واستذكار مواقع الأحبة وسكب الدمع على ما حل بهم .

والشريف الرضي أودع أحاسيسه الوجدانية في مسارب اللغة المختلفة ، وشحن اللفظة بمشاعره ، وغمسها بأحاسيسه ، فحملت خصائص شخصيته ، وعبرت عن ذاته ، ورمزت إلى نفسه ، وشكت أخيرا عالمه الشعري الإبداعي .

وقد لجأ الرضي في حجازياته إلى لغة الوجدان التي تفصح عن دلالات شعوره بالحزن والفراق والأسى والحرمان والغربة ... وما تحمله أيضا من الفرح والسعادة والرضا ...

وقد استعمل الرضي في حجازياته الألفاظ الرقيقة البعيدة كل البعد عن الغموض فقد كانت سهلة سلسة مرنه لم يكتنفها الغموض .

---

[1] بناء القصيدة عند الشريف الرضي ، د. عناد غزوان ، منشورات اتحاد الأدباء والكتاب في العراق بالتعاون مع دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط ١ ، ٢٠٠٨ ، صـ ٢٠٥ .

وقد ظهرت البداوة واضحة جلية في معجم الشاعر العام وفي طبقات أعماله الأدبية وفي معجمه الخاص الذاتي ، وسيتناول البحث دراسة دلائل الألفاظ البدوية في حجازيات الشريف الرضي من حيث :

١_ الدلالة الرمزية للبادية .

٢_ الطول والدلالة .

٣_ السهولة والإضاح .

٤_ بداوة الحقول الدلالية في حجازيات الشريف الرضي .

أولا : الدلالة الرمزية للبادية :

الرمزية وهي مذهب شعري لم يكن معروفا في تلك العصور السالفة ، فهذا المذهب يمثل بالرموز وما يوجد من تجانس خفيّ بين الأشياء ونفوسنا ، وتظهر الرمزية حينما يتطور الخيال وتتطور الحياة التي يعيشها الشاعر ، فيترك الشاعر الألفاظ الساذجة ويأتي بألفاظ معروفة مألوفة ويبني عليها خياله وكأن هذه الألفاظ قد أوحاها الشاعر لنفسه وتزامن معها وكأنه هو من عاشرها واتخذ منها ألفاظا لشعره .

وفي القرن الرابع الهجري برز لنا الشريف الرضي هذا الشاعر الجليل القدر الذي يتمتع بفطنة قوية وعلم جم ، فنرى في حجازياته الكثير من الرمزية التي تدل على أنه من بناة هذا المذهب ، فتحدث في شعره عن معان يقصدها وعن ألفاظ تدل على معان غير مقصودة ، فنرى تجانسا في حجازياته بين الأشياء ونفسه وكان يذكر في أسماء لم يكن لها مسميات في ذهنه ([1]) .

[1] عبقرية الشريف الرضي ، صـ ٢٨٩ .

فنرى في حجازياته أنه قد ذكر أسماء بعينها فتدل دلالة واضحة على الرمزية التي اصطفاها لنفسه ومن ذلك ما فصح به عن تغزله بلمياء وأميمة وليلى وغيداء :

ألا أيها الركب اليمانون عهدكم ، على ما أرى ، بالأبرقين قريب

وإنَّ غزالاً جزتم بكناسه ، على النّأي عندي ، والمطال حبيب

ولما التقينا دلّ قلبي على الجوى دليلان : حسن في العيون وطيب

ولي نظرة لا تملك العينُ أُختها ، مخافة يثنوها عليّ رقيب

وهل ينفعنّي اليوم دعوى براءةٍ لقلبي ، ولحظي ، با أميم ، مريب ([1])

فالرضي في هذه الأبيات انتهل من منهج الأقدمين من خلال ذكره لأسماء بعينها ، فنراه قد رمز إلى أميم فيا ترى من أميم هذه هل هي محبوبته أم هو شيء من الخيال يراود الرضي ، وقد ذكر في هذا الرمز أيضا أماكن بدوية بعينها منها (الأبرقين) .

ونراه أيضا يرمز باسم جديد هذه المرة في تغزله بلمياء فيقول :

عشقت وما لي ، يعلم الله حاجة سوى نظري ، والعاشقون ضروب

ومالي يا لمياء بالشعر طائل ، سوى أن أشعاري عليك نسيب

أحبك حباً ، لو جزيت ببعضه ، أطاعك مني قائد وجنيب

وفي القلب داء وفي يديك دواؤه ، ألا رب داء لا يراه طبيب ([2])

فرمز بلمياء بدل أميم ، وفي الرمز دلالة على سنن الأقدمين من خلال تغزله بلمياء ومن خلال وصفه للعاشقين بأنهم أنواع ، ثم نراه يتغزل بالعامرية وهي المشهورة في تاريخ الأدب العربي ، وما نقلوه لنا المؤرخون على مر الأزمنة وهي ليلى العامرية فيقول :

---

[1] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ١٧٩ .

[2] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ١٧٥ .

وقفت بربع العامرية وقفةً ، فعزّ اشتياقي والطلول خواضع

وكم ليلة بتنا على غير ريبة علينا عيون للنهى ومسامع ([1])

فرمز بالعامرية بدل لمياء وفي هذا الرمز دلالة على البداوة من خلال تقليده للأقدمين بهذا الرمز ومن خلال ذكره إلى الطلول ، ثم نراه يتغزل بظمياء فيقول :

لقلبي بغوري البلاد لبانة ، وإن كنت مسدوداً علىّ المطالع

لعلي أعطي ، والأمانيُّ ضلّةٌ وإن الليالي معطيات موانع

مبيتي في أثواب ظمياء ، ليلةً ، بوادي الغضا والعاذلون هواجع [2]

فهذه بعض المقاطع من قصائد الحجازيات التي تدل على الرمزية في ذكر أسماء المحبوبة وتدل على أن الرضي كان يختار الأسماء من مخيلته لكي يبني عليها شعره وما يراوده فيه من أحزان وأشواق فنراه في البداية يتغزل بأميم ثم بعد ذلك نراه يتغزل باسم جديد وقد أختلقه الرضي لنفسه وهو لمياء ثم ينتقل بعد ذلك في حجازية أخرى ليتغزل بليلى العامرية ومن ثم ينتقل مرة أخرى ليتغزل بظمياء ، وبذلك فإنه لم تكن هناك لا أميم ولا لمياء ولا العامرية ولا ظمياء فهذه الأسماء كلها قد أختلقها الرضي في حجازياته ولم تكن لها وجود في الحقيقة وإنما هذه الرموز كلها من خيال الرضي الذي عبر عنه بكل صدق ولوعة .

وفي هذه المقاطع أيضا نجد فيها الكثير من الألفاظ البدوية الدالة على الحياة البدوية التي كان يعيشها الشاعر من ذكر بعض أسماء الأماكن البدوية ومن ذكر أيضا الركب والرحلة والسفر والطلول .

---

[1] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٦٥٨ .

[2] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٦٥٩ .

ويوجد في حجازيات الرضي طائفة من الألفاظ البدوية لها دلالات رمزية تتعلق هذه الألفاظ بالموجودات الحسية الطبيعية ، وتخرج عن معناها الحرفي المحسوس إلى معناها المعنوي ، ولها ايحاءات رمزية في ثنايا العمل الأدبي ، ويكثر دورانها في حجازيات الرضي .

فمنها كلمة " البرق " ، و " الريح " ، و " الشمس" ، و" الحبل " ، و " الرعد " ، و " السحاب " ، و " النجوم " ، و " التطمت " .

لفظ البرق :

فيدل على قوة الضوء التي يخلفها في السماء حتى تكاد الأرض من تحته تضيء وكأنك في ليل داج لا يرى منه شيء ففجأة تضيء الأرض وكأنها نهار ساج .

يقول الرضي :

يشي بنا الطيب أحياناً ، وآونةً يضيئنا البرق مجتازاً على أَضَمِ ([1])

ونجد هذا اللفظ متكررا في بعض قصائد الحجازيات ([2]) ليدل على مدى القوة التي يأتي بها وأيضا يرسل من خلاله أشواقه إلى محبوبته .

لفظ الريح :

يدل على القوة ، فجاء الرضي بهذا اللفظ محدثا به الريح أثناء هبه فيأخذه من الحمى فيلاقي به نسيم ربى نجد فيقول الرضي :

خذي نفسي يا ريح من جانب الحمى فلاقي بها ليلا نسيم ربى نجد ([3])

ونجد هذا اللفظ يتوارد في حجازيات الشريف الرضي بكثرة فقد استعمله في طريقة الفراق بينه وبين محبوبته في قوله :

---

[1] ديوان الشريف الرضي ، جـ ٢ ، صـ ٢٧٤ .

[2] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ١٧٥ ، ٦٥٤ ، جـ ٢ ، صـ ٢٧٤ ، ٥٦٣.

[3] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٣٨٩ .

حتى إذا نسمت ريا ح الصبح تؤذن بالفراق ([1])

واستخدمه كذلك في الشوق والحنين والترحال إلى بلاد الأحبة :

هبّت لنا من رياح الغور رائحةٌ بعد الرُّقادِ عرفناها بريّاك ([2])

واستخدمه أيضا في وصف ليلته هو ومحبوبته وكيف كانت الريح تجاذبه على الكثبان وهو في العراء فيقول :

وأمست الرّيح كالغَيرَى تجاذبنا على الكثيب فضول الرّبط واللِّمَمِ [3]

واستخدمه أيضا للدالة على سقوط أوراق الشجر وتمايل الأغصان وهو يقول :

حاز وفد الرّيح ، فالتطمت منه أوراق وأغصان ([4])

فكل هذه الاستخدامات للفظ الريح تدل دلالة واضحة على الرمزية البدوية التي استخدمها الرضي لهذا اللفظ من خلال ربط هذا اللفظ مع العديد من المعالم البدوية المذكورة بما فيها تغزله وذكره للأشياء الطبيعة المتغيرة .

لفظ الشمس :

استخدمه الشريف الرضي على أنه مضر للعيون وخاصة وقت البدر وهو يحدّث محبوبته وهو في حزن عميق فيقول :

أمضرّة بالبدر طالعة ، عند العيون ، وضرّة الشمس

أنا منك في كمد على كمدٍ يومي عليّ أمرُّ من أمسي ([1])

---

[1] ديوان الشريف الرضي ، جـ ٢ ، صـ ٧٧ .

[2] ديوان الشريف الرضي ، جـ ٢ ، صـ ١٠٧ .

[3] ديوان الشريف الرضي ، جـ ٢ ، صـ ٢٧٤ .

[4] ديوان الشريف الرضي ، جـ ٢ ، صـ ٥٠٤ .

فيدل هذا اللفظ على البداوة الطبيعية التي هي فرع من فروع الوصف في الشعر العربي ، ولهذا ربط لفظ الشمس بالبداوة لما له من تأثير على حياة البدوي من خلال تأثره بالشمس وخاصة أن البدو يسكنون الخيام والبيوت من الشعر فنراهم يقومون من نومهم مبكرا لكي يقضوا جميع حوائجهم قبل أن تخرج عليهم الشمس وتحرقهم فلا نراهم في وقت الذروة يخرجون من خيامهم فهم في ذلك الوقت ملازمين للخيام وإذا كانوا خارج الخيام سواء أكانوا في الرعي أو أثناء سفرهم فنراهم أثناء الذروة ملازمين إلى الأماكن التي تقيهم حرّ الشمس .

لفظ الحبل :

فيدل هذا اللفظ على القوة واستخدامه الرضي للأعداء في ربطهم أثناء أسرهم في المعارك وأنه لم يفك هذا الحبل بل سيزيد من ربطه وليس هذا فقط بل أنه سيستخدم معه السيف كذلك فيقول الرضي :

لا ذراعي رخوة رِخوةُ الحبـ ـل ، ولا السيف كهام (٢)

وردت هذه الألفاظ عند الشاعر الجاهلي فاستخدمها في مجال القوة والمعارك والهلاك للأعداء ، ومن الملاحظ أن الشريف الرضي قد استخدم هذه الألفاظ البدوية بشيء جديد أنه استخدمها على منوال الشعراء القدامى ولكنه قد أتى بشيء جديد هو أنه قد استخدمها أثناء غزله فيرسل من خلالها شوقه ويحذر كذلك محبوبته .

لفظ الرعد :

فيدل على قوة الصوت الذي يصدره قبل هطول المطر فاستعمل الرضي هذا اللفظ مع لفظ السحاب و البرق فقال :

لا زال جيب الليل منفصم العُرى عن كل أوطف مبرقٍ مرعادِ (٣)

---

[١] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٥٦٣ .

[٢] ديوان الشريف الرضي ، جـ ٢ ، صـ ٢٨٥ .

[٣] المصدر نفسـه ، جـ ١ ، صـ ٣٣٧.

فاستعمل الرضي هذه الألفاظ مجتمعة مع بعضها الليل وإقلاع المطر عن الهطول والضباب الذي يجتاح الأرض أثناء الليل والسحاب والبرق والرعد فهذا يدل على قوة الألفاظ وتماسكها وجزالة لفظه وبلاغته وفطنته في اختيار مثل هذه الألفاظ البدوية مجتمعة في بيت واحد .

لفظ النجوم :

يقول الرضي :

وندامى كالنجوم سطوا بالمنى ، والدهر جذلان [١]

فكل هذه الألفاظ من برق ورعد وريح وشمس ونجوم تعتبر من السمات البدوية الطبيعة وذلك لأن " الطبيعة فرع من فروع الوصف في الشعر العربي " ([٢]) ، ولأن الشاعر الجاهلي قد أحاط بها جميعا في شعره .

الطول والدلالة :

من شروط الكلمة الفصيحة في اللغة العربية أن تكون مؤلفة من أقل الأوزان تركيبا، مع تجنب الألفاظ المؤلفة من حروف يثقل النطق بها ، سواء كانت طويلة أو قصيرة ، فالأصل من الألفاظ لا تحسن إلا في الثلاثي وفي بعض الرباعي ... وأما الخماسي من الأصول فإنه قبيح ، ولا يكاد يوجد منه شيء حسن ، ولكن ليس معنى هذا أن الألفاظ الطولية قبيحة فهناك بعض الألفاظ طويلة ولكنها حسنة في معناها كما ورد في قوله تعالى : (فسيكفيكهم الله) ([٣]) ، فهذه اللفظة مكونة من تسعة أحرف ، وقوله تعالى : (ليستخلفنهم في الأرض) ([٤]) ، فإن هذه اللفظة

---

[١] المصدر نفسه ، ج ٢ ، صـ ٥٠٥.

[٢] الشعر والشعراء في العصر العباسي ، د. مصطفى الشكعة ، ط ٢ ، دار العلم ، بيروت ، ١٩٧٥ ، صـ ٨٠١.

[٣] سورة البقرة ، الآية ١٣٧.

[٤] سورة النور ، الآية ٥٥.

عشرة أحرف ، وكلتاهما حسنة رائقة، ولو كان الطول مما يوجب قبحا لقبحت هاتان اللفظتان ، والكلمة التي تكون قبيحة ليس بسبب طولها ؛ وإنما هو لأنها في نفسها قبيحة . ([1])

والألفاظ تعتمد على جدور يرجع كل لفظ إلى أصله الذي أنحدر منه أثناء تركيب هذا اللفظ ، وعلى هذا الأساس فإن اللفظ يرتبط بالجدر اللغوي من حيث الطول " الألفاظ أدلّة على المعاني ... فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني " ([2])

ويكثر في حجازيات الشريف الرضي الألفاظ المتكونة من ثلاث احرف وكذلك أربعة أحرف ، كما يكثر أيضا استعمال الألفاظ البدوية طويلة المقاطع في حجازياته وترتبط هذه الألفاظ بصفات الحيوانات وبالمظاهر الطبيعية البدوية ، وبالرغم من أن شروط الكلمة الفصيحة في اللغة العربية أن تكون متكونة من ثلاث أحرف إلا أن الرضي من خلال طول بعض كلماته استطاع أن يسيطر عليها في شعره وأن يظهرها في أحسن صورة فهذه دلالة على قوة السليقة والذكاء الذي يتمتع به والفطر التي عاش عليها ، ومنها يقول الرضي :

طوتك الليالي من رفيق كأنه من العجز يربوع الملا المتقصِّعُ ([3])

فكلمة " يربوع " تطلق على نوع من الفئران قصيرة اليدين طويلة الرجلين ، وكلمة " المتقصع " فهي جُحْرٌ من جِحَرَةِ اليرابيع الذي تَقْصَعُ فيه ، أي تدخل ، وتنتمي إلى الجدر الثلاثي " قَصِع " ، وتجمع على " قواصع " فالزيادة هنا على الجدر الثلاثي الألف واللأم والميم والتاء ، فهذا الحيوان لا يوجد إلا في البادية فهو كثير الحفر وله العديد من المخارج والمداخل في جحره وعندما يحس بالخطر قد داهم جحره تراه يخرج من الحفر التي حفرها للهروب معها أثناء مطاردته .

---

[1] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين بن الأثير ، تحقيق : أحمد الحوفي و بدوي طبانة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، الفجالة ، القاهرة ، م ٢ ، جـ ١ ، صـ ١٩٠_ ١٩١.

[2] المصدر نفسـه ، جـ ٢ ، صـ ٥٦.

[3] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٦٥٥.

" **التلعاء و القربوس** "

التلعاء وهي الطويلة العنق من الأنثى ، وتنتمي إلى الجذر اللغوي الثلاثي " تلع " وعندما أنثت زيد على الكلمة حرف الألف والهمزة لتحاكي امتداد العنق وهي من سمات الخيل الأصيلة التي يمتلكها البدوي ، والقربوس فهو حنو السرج أي قسمه المقوس المرتفع قدام المقعد ومن مؤخره .

يقول الرضي :

من كل تلعاء المناكب ، جيدها يغني عن القربوس يوم طراد ([1])

يصف الرضي الفرس بأنها طويلة العنق فلا تحتاج إلى السرج لأنه عندما ترفع رأسه إلى الأعلى وهي طويلة العنق فيكون ظهرها وكأنه مثل السرج فلا داعي لتركيب السرج عليه .

" **الوعساء** "

وهي الأرض اللينة ذات الرمل والسهل ، وتنتمي إلى الجدر اللغوي الثلاثي " وعس " فزيد عليها حرف الألف والياء لتحاكي شدة السهولة واللين في هذه الرمال .

يقول الرضي :

ولو قال لي الغادون : ما أنت مشتهٍ غداة جزعنا الرّمل ، قلت : أعودُ

أأصبر ، والوعساء بيني وبينكم ، وأعلام خبت ؟ إنّني لجليد ([2])

فهو يصور هذا البعد الذي بينه وبين أحبابه وهذه الأراضي الشاسعة المتسعة التي تفصله عنهم فيقول وهو يتساءل إن سألوه عن ماذا يشهي فيرد على نفسه ويجيب بأن الصبر لم يعد يطيقه ويتمنى أن يسقط من السماء ندًى فيجمد على الأرض حتى يصبح جليدا .

---

[1] المصدر نفسه ، جـ ١ ، صـ ٣٣٩.

[2] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٣٩٠.

" **الأطواد** "

فكلمة " الأطواد " تطلق على الجبال العظيمة التي تبقى على حالها على مرّ الأزمان وهي بنفس الطول والعظمة ، وتنتمي إلى الجدر الثلاثي " طود " ، فزيد على الجدر الثلاثي حرف الواو والألف ليحاكي قوة وتماسك هذه الجبال .

يقول الرضي :

الخيل ترتشف الصعيد نسورها طرداً ، وتلفظه على الأكتاد

أقبلن مثل السيل صوّب عُنقَه نشز العقاب إلى قرار الوادي

وتكاد تمسح من دماء جراحها آثار ما نقشت على الأطواد ([1])

فهو يصف قوة الخيل أثناء سرعتها وهي تجري فترتفع حتى أن التراب الذي تحت حوافرها تقذفه إلى أن يصل أكتاف الفارس الذي يقودها ، ويصف أيضا إقبال الخيل أثناء المعركة فتكون مثل العقاب عندما يصطاد فريسته من الأرض وفي لحظة يرتفع ويكاد لا يرى ، والخيل في ساحة القتال تكون معرضة للجرح والقتل فيصف الرضي دمائها على أنها لو كانت منقوشة على الجبال لمسحت من شدة الكر والفر في الحرب . فهذه الأبيات تحاكي قوة الخيل ومدى صبرها في الحرب فهي دائما تكون في المقدمة ولا تهاب السيوف ولا الرماح ولا النبال فهي قوية أثناء الصعاب .

" **ركائبهم** "

وهي الإبل التي يسار عليها أثناء الترحال فتتحمل مشاق السفر ، وعبور الصحراء والعطش ، فكلمة " الركاب " مفردها " راحلة " ولا واحد لها من لفظها ، وتجمع على " الرُكُبُ " بالضم .

يقول الرضي :

ولا نظرت إلى ماءٍ على ظمإٍ ، تبغي الورود وليس الورد بالداني

[1] المصدر نفسه ، جـ ١ ، صـ ٣٤٠.

ولا فجعت وقد سارت ركائبهم يوم الغميم بغزلانٍ كغزلانِ ([1])

فهو يصف الإبل وكيفية تحملها على مشاق السفر ، وعندما تكون ظمآنة لا تنظر إلى الماء وتمر حتى من الوديان والشعاب فصورها فشبهها الرضي بالغزلان التي ترعى وتتخذ من الجبال مكانا يؤويها حتى تبتعد عن الخطر التي يجتاحها وخاصة الصيادين ، فتمر الإبل بسهولة من هذه الوديان ولا تخدل من يقتادها وتكون معينة له أثناء ترحالهم فاستعملها العرب في نقل أمتعتهم وفي الترحال وفي التجارة فسميت بسفينة الصحراء لما لها القدرة على تحمل الصحراء الصعاب التي تواجهها فيها فتكون خير معين للمسافر أثناء سفره أو ترحاله .

هذه بعض الألفاظ البدوية التي ذكرها الرضي في حجازياته الدالة دلالة واضحة على الحياة البدوية التي يعشها الشاعر البدوي المتقن لفنونها وأدواتها ، فهذه الألفاظ في أغلبها تحاكي الصفات التي تتميز بها الحيوانات التي يستعملها البدوي أثناء حياته في البادية أو يأكلها أو يصطادها ، فهذه دلالة واضحة على أن الكلمة الطويلة تكون داخل نطاق سمة البداوة ؛ لأن الشاعر من خلال هذه الكلمات البدوية استطاع أن يعبر عما في قلبه أروع تعبير ، وبذلك تعد هذه الكلمات الطويلة المقاطع من ضمن السمات البدوية التي عبر عنها الشعراء سواء في العصر الجاهلي أو العصور التي تليه من السمات البدوية المكملة والمتممة لشعر البدو ، وذكر الرضي أيضا ألفاظا كثيرة مغرقة في الطول توضح سمات البداوة وغرابة الألفاظ في شعره فمنها على سبيل المثال : " الظباء ، الطلول ، المصعب ، الغبيط ، الملسوع ، البشام ، اللِّطام ، الأوراد ، المرضاخ ، الرغام ، الخيام " . ([2])

---

[1] ديوان الشريف الرضي ، جـ ٢ ، صـ ٤٧٥.

[2] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٢١٨ ، ١٨١ ، ٥١٠ ، ٦٥٢ ، و جـ ٢ ، صـ ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٤٧٤.

السهولة والإيضاح :

على الرغم من أن شعر الشريف الرضي ذات نزعة بدوية عامة إلا أن سمة الوضوح كانت أيضاً حاضرة في شعره ، فنجد السهولة والسلاسة في الألفاظ ، متحدة بقوة السبك والصياغة في شعره . وهذا يدلنا على شيء أشار إليه الدكتور إحسان عباس وهو أنَّ الشريف الرضي " انتقائي في بناء شعره لا يلتزم طريقة واحدة معينة ، فهو بدوي حيناً ، وهو يحاكي البحتري حيناً آخر " (١) . ويعلل باحثٌ آخر هذه الانتقائية بقوله أنَّ الشريف الرضي كان " يدعو إلى ابتكار الصورة الشعرية بعد تأمل عميق وحس أصيل واستيعاب واعٍ لتجارب الآخرين " (٢) ولربما كان وراء ذلك " ممارسته الدائمة للقرآن والحديث وكلام الإمام علي قد أثرت في لغته وأسلوبه أحسن تأثير فصفت ديباجته ورقت حاشيته ووضحت عبارته وجمع بين جزالة اللفظ وفخامته ومتانة التعبير وعذوبته وخلا شعره من الفضول والحشو " (٣) .

ومن ذلك قوله :

لا يفضل المعنى على لفظه شيئا ، ولا اللفظ على المعنى (٤)

ومن خلال هذا نتبين أن الشريف الرضي كان واعيا باستخدام ألفاظه وعباراته متخذا بها أسلوبه الرقيق في تركيب أبياته الشعرية هذا الأسلوب الذي ميزه عن غيره من الشعراء القدامى والمحدثين ، وسمة البداوة ليست مقتصرة في الألفاظ التي تتحدث عن الحيوانات سواء أكانت صفاتها أم أصواتها أو ما يتعلق بها بشكل عام ، وليست أيضا متعلقة بحياة البدوي سواء أكان من المشرب أم المأكل أم الملبس أم المعيشة التي يعيشها البدوي ، وليست مقتصرة أيضا على ذكر الطبيعة سواء أكان بذكر للكواكب والنجوم والرياح والبرق والرعد أو بذكر للأشجار

---

١ الشريف الرضي ، صـ ٢٥٨.

٢ بناء القصيدة في شعر الشريف الرضي ، صـ ٢١٦.

٣ الطفيات المقولة والإجراء النقدي ، تأليف : د. علي كاظم المصلاوي ، تقديم : محمد علي الحلو ، العتبة الحسينية المقدسة ، ط ١ ، ٢٠١٢ م ، صـ ٧١.

٤ ديوان الشريف الرضي ، جـ ٢ ، صـ ٥٥٥.

والأغصان والروض بصفة عامة وإنما هناك عدة أشياء تكون سمةً من السمات البدوية تظهر واضحة في شعر شعراء البادية وتغلب عليها سمة الوضوح والسهولة فمنها على سبيل المثال ما ظهر لنا من خلال دراستنا للتيار البدوي في حجازيات الشريف الرضي ذكر أسماء الأماكن سواء أكانت هذه الأماكن قرى أو أحياء مرّ بها الرضي أثناء سفره أو تغزل بها في حجازياته أو كانت أسماء للأماكن البدوية من جبال وسهول ووديان وغيرها من الأماكن الحجازية التي ذكرها الرضي في حجازياته وربما كان الحجاز سببا من تسمية قصائده بالحجازيات .

وقد حققت سمة الوضوح والسهولة في حجازيات الشريف الرضي عدة أشياء كان أبرزها استعمال الشاعر للأسماء ، فإننا نجد أسماءً " قد دللت على معانٍ معينة مثَّلت قيماً خلقية دينية مقدسة وأخرى مثَّلت قيماً مضادة لها، وكأنما يوحي الشاعر بنزاع أبدي بين هاتين الفئتين من الأسماء، فئة خيرة أخروية وفئة ظالمة دنيوية " ([1]) .

وعلى رأس هذه الأسماء التي ذكرها أسماء الأماكن المقدسة التي يزورها الحاج أثناء تأدية الحج ، فقد كان الرضي على رأس البعثة التي تخرج من العراق إلى مكة ، فكان لحجازياته نصيب وافر في أن يذكر أسماء هذه الأماكن ، وأيضا أسماء الأماكن التي يمر بها أثناء رحلته إلى هذه البقعة الطاهرة التي ولدت في نفسه الشوق والألم كلما رأي ركبا متوجها إلى هذه الأماكن ليرسل معهم أشواقه وسلامه فيقول :

أيها الرائح المُغذُّ تَحَمّل حاجةً للمعذَّبِ المشتاق

أقرِ عنّي السلام أهل المصلّى ؛ وبلاغ السلام بعد التلاقي ([2])

فهذه السهولة والإيضاح التي تميز بها شعره وأرسل من خلاله أشواقه ولوعته إلى أهل المصلى ولعله هنا أراد منه ذكر موضع معين في مكة ، وإلى جانب ذلك السهولة والايضاح سمة بدوية تمتاز بها هذه الأسماء ، وفي ذكر أسماء الأماكن المقدسة يقول :

---

[1] في الأدب العباسي ، د. محمد مهدي البصير ، ط ٣ ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ، ١٩٧٠ ، صـ ٤٢٨.

[2] ديوان الشريف الرضي ، جـ ٢ ، صـ ٧٩.

حيٍّ ، بين النقا وبين المصلى ، وقفات الركائب الأنظاء

ورواح الحجيج ليلة جمع ، وبجمعٍ مجامع الأهواء

وتذكر عني مناخ مطيتي بأعالي منىً ومرسى خبائي

وتعمد ذكري ، إذا كنت بالخيـ ـف ، لظبي من بعض تلك الظباء ([1])

فهذا الشاعر البدوي الطبع البعيد عن التكلف في صياغة شعره يجمع بين الأشياء الطبيعية التي تدل دلالة واضحة على البادية وهنا ذكر " النقا " وهي القطعة من الرمل التي تنقاد محدودبة ، و " المصلى " وهو مكان الصلاة ، ولعله الشاعر أراد بهما موضعين بعينهما ، ثم يذكر أسماء الأماكن المقدسة في أبياته وهي " جمع " وهي المزدلفة التي تقع بين عرفات ومنىً ، و " ليلة جمع " وهي ليلة وقوف الحجاج بعرفة ، و " منىً " موضع في مكة ، و " الخيف " ناحية من منىً وهي غرة بيضاء في الجبل الأسود الذي خلف أبي قبيس وهو جبل في مكة .

ونجد في حجازياته الكثير من أسماء الأماكن التي يمر بها أثناء سفره وكذلك أيضا أسماء الشعائر المقدسة التي يؤديها الحاج لكي يكمل به حجه حتى يقبل منه أداء هذه الفريضة التي فرضها الله سبحانه وتعالى على كل من استطاع إليها سبيلا ومن ذلك قوله تعالى (وَلله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) ([2]) ، فمن هذه الأسماء " ليلة جمع " و " يوم النّفر " و" رمي الجمرات " ([3]) كما نجد أيضا في قصائده أسماء الأماكن التي دائما يتغنى بها في حجازياته منها " العراق " و" مكة " و " نجد " و " تهامة " و" بغداد " و" ذي الأثل " و " المأزمين " و " آلال " و " أبرق الحنان " و " سلع " و " ذي الأبارق " و " الغميم " و " طيبة " و " قباء " و " أحد " و" زمزم " و " المطاليا " ([4]) .

---

[1] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٣٥.

[2] سورة ءال عمران ، الآية ٩٧.

[3] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٣٥ ، ٢١٧ ، ٥١١ ، جـ٢ ، صـ ٥٧١.

[4] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٣٩٠ ، ٣٩٣ ، ٤١٢ ، ٥١٧ ، ٦٥٣ ، ٦٥٣ ، ٦٥٧ ، و جـ ٢ ، صـ ٧٨ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ٢٢٦ ، ٢٧٢ ، ٢٨٢ ، ٤٧٥ ، ٤٨٥ ، ٤٨٨ ، ٥٦٤ ، ٥٧٠ .

فكل ما تقدم ذكره فهي أسماء لبعض الأماكن التي كانت توجد في حجازيات الشريف الرضي فبمزج هذه الأسماء ازدادت الحجازيات سهولةً وإيضاحاً ورقةً ؛ لأنه من خلالها تكون عونا للقارئ في فهم الأبيات وسهولتها وإيجازها فهذه خاصية من الخصائص التي تميز بها الرضي في حجازياته ، وإلى جانب السهولة والإيضاح تعد هذه الأسماء التي ذكرت من السمات البدوية سواء أكانت أسماء للأماكن أو غيرها من الأسماء .

وعلى الرغم من هذه السهولة والإيضاح والإيجاز إلا أنه هناك بعض الألفاظ في حجازيات الرضي التي تستدعي بالقارئ الرجوع إلى المعاجم اللغوية لمعرفة معاني هذه الألفاظ البدوية ، ليسهل على الباحث معرفة ما يريد أن يصل إليه من خلال بحثه فمن هذه الأسماء التي يجب على القارئ أو الباحث الرجوع إلى المعاجم لمعرفتها مثلا : أسماء بعض الجبال أو أسماء الوديان أو أسماء بعض القرى التي يمر بها الرضي أثناء ترحاله .

بداوة الحقول الدلالية في حجازيات الشريف الرضي :

الكلمة في ذاتها لا تحمل معنى دلاليا ، وإنما يظهر معناها في إطار العمل الأدبي المتماسك الذي يربط الكلام السابق بالكلام اللاحق ، ومدى ترابط الأفكار في هذا الكلام ، " ويظهر العمل الأدبي من خلال انتقاء الألفاظ ... واستعانة الأديب بأدواته التي يضع كلا منها في مكانة بحيث يظهر لها وميض واشعاع يميزها عن غيرها " ([1]) .

وفي العمل الأدبي " كلما كانت الألفاظ أكثر قرابة وأشد تماسكا في معانيها الدلالية ... حيث إن الألفاظ المتقاربة الدلالة ، أو التي تخضع لمجال واحد تسهم في سد الثغرات وتحقق الوحدة البنيوية " ([2]) .

والعمل الأدبي كالثوب المنتظم النسيج ، ولا يظهر الحسن فيه إلا بمدى التفاعل والانسجام بين الألفاظ ، فمن خلال ارتباط الأفكار الجزئية التي تحدث بين الألفاظ والجمل تنشأ الحقول الدلالية ومنبع هذه الحقول اللغة الشعرية التي يظهر من خلالها مدى تلائم الألفاظ والموضع الذي تبنى عليه القصيدة .

ولكل شاعر معجم خاص يميزه عن غيره من الشعراء من خلال تأثره بالبيئة المحيطة به سواء أكان هذا التأثر سياسيا أم اجتماعيا أم اقتصاديا ، " فالألفاظ التي يتكون منها معجم الشاعر هي جزء أساس من التشكيل الجمالي الكامل بحيث يستحيل فصلها عن كل من البناء والصورة الشعرية ، فهذه الألفاظ هي التي تبنى عليها التجربة في تشكيلها الجمالي " ([3]) .

فالشاعر ابن بيئته يتأثر بما يدور فيها سواء أكان في بيئة حضارية أو بيئة بدوية فالشاعر ملازم لها ويتغنى بها وبما فيها من حياة ، ولكن الشريف الرضي كان من بيئة حضارية في بغداد ابان مطلع القرن الرابع الهجري حيث مهد الحضارة العرب حين ذاك فكانت بغداد حاضنة لها وما فيها من اختلاط العرب بالأعاجم ، وكثرة الفنون ، إلا أن الرضي رغم هذه البيئة التي

---

[1] البداوة في شعر المتنبي ، صـ ٢٤٨.

[2] بناء القصيدة في شعر الناشىء الأكبر ، د. علي ابراهيم أبو زيد ، دار المعارف ، ١٩٩٤ ، صـ ١٢٨.

[3] بناء القصيدة في شعر الناشىء الأكبر ، صـ ١٥٨.

عاشها فهو في حجازياته بدوى الطبع والهوى ، فحب البادية وخيامها وسكانها وكان دائما في حديثه يميز حياة البادية على الحضارة ، فنجد في حجازياته الكثير من الألفاظ البدوية التي تدل على الطبيعة الصحراوية من رمل وحجر ووديان وجبال وبرق ورعد وشمس وقمر ونجوم وأشجار وذكر للحيوانات البرية والبدوية ، ومن بداوة الطباع التي تغنى بها ومايدل على الواقع الاجتماعي البدوي بكل مقوماته من حيث وصف للمعارك والطير والخيل والإبل .

ومن الممكن تقسيم معاجم الألفاظ البدوية التي وردت في حجازيات الرضي إلى هذه المعاجم والأنماط اللغوية :

١_ معجم البيئة البدوية .

٢_ مجال الحيوانات الصحراوية والحشرات .

٣_ في مجال الوصف الدلالي للحيوانات وأصواتها .

٤ في مجال المعركة .

٥_ في مجال الألفاظ التي تتحدث عن المرأة البدوية ولوازمها وسماتها .

٦_ وفي المعجم الواقع الاجتماعي البدوي للشاعر .

معجم البيئة البدوية :

ويوضح هذا المعجم الطبيعة الصامتة والظواهر الطبيعية والطبيعية المتحركة منها ، فنجد في حجازياته ألفاظ كثيرة دالة على هذا النوع من المعاجم الدالة على الحياة البدوية التي يعيش في كنفها الشاعر البدوي ويتربى عليها فتصبح جزء من حياته لا يستطيع التخلي عنها ، فنجد في حجازياته الكثير من الألفاظ التي تتحدث عن وصفة للطبيعة البدوية بما فيها الأشجار والأغصان والأوراق والكثبان الرملية فمن ذلك قوله في تشبه الحيّ فيقول :

أشبهت أظغان ذاك الحيّ من يمنٍ طيبا وحسناً وأغصاناً وكثبانا ([1])

فتدل كلمة " أغصانا وكثبانا " على الطبيعة البدوية التي يتميز بها ذاك الحي الذي شبهه به الرضي في حجازياته بأنه طيبا وحسنا من خلال تزيينه بهذه الألفاظ البدوية وهي أغصان الورق والكثبان الرملية التي تزيد من زينته وروعته .

ويقول أيضا وهو يصف لعب الطير :

ينأى ويدنوا على خضراء مورِقَةٍ ، لعب النعامى بأوراق وأغصان ([2])

فهو يشبه لعب الطير بالأشجار المورقة كلعب النعامة بأوراق وأغصان الشجر ففي تشبيهه دلالة على البيئة البدوية الطبيعية من خلال تشبه هذه الحيوانات ولعبها بالأوراق والأغصان والشجر .

وفي حديثه عن البيئة البدوية الطبيعية يقول وهو يتغزل بمحبوباته :

يلجلجن قضبان البشام عشية ، على ثغبٍ من ريقهنّ معين ([3])

ففي حديثة دلالة على معالم البداوة الطبيعية وبما فيها من وصف للشجر من خلال قوله " البشام " وهو شجر عطر يستاك بعيدانه ، وأيضا من خلال ذكره لـ " ثغبٍ " وهو الغدير الذي يكون في ظل الجبل فلا تصل إليه الشمس فيكون ماؤه باردا .

وفي حديثه عن الطبيعة وما بها من عوامل متغيرة من برق ورعد ونجوم وشمس وقمر ورياح يقول الرضي ويصف الليل بالظلام الدامس فيأتي عليه البرق والرعد فيحدث ضوء كثيرا ففيه دلالة على قوة الرعد والبرق فيقول :

لا زال جيب الليل منفصم العُرى عن كل أوطف مبرق مرعاد ([1])

---

[1] ديوان الشريف الرضي ، جـ ٢ ، ص، ٤٧٤ .

[2] ديوان الشريف الرضي ، جـ ٢ ، صـ ٤٧٥ .

[3] ديوان الشريف الرضي ، جـ ٢ ، صـ ٤٨٥ .

فيعد البرق والرعد معلمين من معالم الطبيعة البدوية التي ذكرها شعراء البادية سواء الأقدمين أم المحدثين .

وفي اشتياقه وحبه لخيام البادية يقول الرضي :

أين الخيام التي كنا نلوذ بها بالأبرقين ، وأين الحيّ سلوانا ([2])

فتدل لفظة " الخيام " على البيئة الطبيعية والحياة البسيطة التي افتقدها الرضي من خلال مرافقة خيمته له أينما يحل فينصبها ويبيت ليلته ففي بيته دلالة على افتقاده للبادية وسكانها وحبه لها .

وهناك العديد من الألفاظ البدوية التي تتحدث عن البيئة البدوية وبما فيها من معالم الطبيعة سواء أكانت من الظواهر المتغيرة أم المتغيرة منها فمن هذه الألفاظ الموجود في حجازيات الرضي :

" النقا ، نوار الأقاحي ، منزلا ، تربة ، البرق ، الديار ، الطلول ، القوارب ، السمرات ، السلمات ، سحاب ، رعد ، الموالي ، المربخ ، السربخ ، وعساء ، زاد ، رياح ، الشيح ، رمال ، الخبت ، العقب ، الليل ، الرحال ، القمر ، البدر ، الشمس ، التراب ، الشِّعب ، اللعلع ، البلقع ، الغضوية ، الأجرع ، الخيام ، أرض ، الغمام ، الضال والسلم ، العنم ، الأري ، البشام ، عجمة ، المرضاخ ، الرغام ، غيث ، الحبل ، نبع وثمام ، بوادي ، أغصان ، كثبان ، نجوم ، النبع ، الثغب ، البيداء ، الخمر ، " ([3]).

---

[1] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٣٣٧ .

[2] ديوان الشريف الرضي ، جـ ٢ ، صـ ٤٧٤ .

[3] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٣٥ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢١٧ ، ٢٨٦ ، ٣٣٦ ، ٣٨٩ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥٦٣ ، ٦٥٢ ، ٦٥٤ ، و جـ ٢ ، صـ ٧٦ ، ١٠٨ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣٣٢ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٥٠٥ ، ٥٧٠ .

فهذه مجموعة من الألفاظ البدوية التي نجدها في حجازيات الشريف الرضي فهي توضح سمة البداوة التي أنشأ عليها الرضي شعره فنجد فيه أسماء للوديان وبعض أسماء الحجر و الشجر و العشب الموجود في البيئة البدوية .

في مجال الحيوانات الصحراوية و الطيور :

لعبت الحيوانات الصحراوية والطيور دورا مهما في الشعر العربي فكان أغلب الشعراء يذكرونها في شعرهم سواء أكان في ترحالهم أم بالتغزل بها أم في مشاركتهم أحزانهم والتحنن إليها من خلال محادثتها واهتمامهم بها لأنها هي الوسيلة التي يتنقل بها من مكان إلى آخر ويحمل عليها زاده وامتعته وهي التي تكون له عونا في جميع مناحي حياته ؛ لأن الطبيعة الصحراوية فرضت عليه تلك الحياة الصعبة ، ومن أهم ما ذكره الرضي في حجازياته من حيوانات صحراوية الناقة فاستخدمها من خلال التعبير عن شوق الناقة إلى الأماكن التي زارها فيقول :

أقول وما حنّت بذي الأثل ناقتي : قِرِي لا ينلْ منك الحنين المُرَجَّعُ

تحنين إلا أنّ بي لا بك الهوى ، ولي لا لك اليوم الخليطُ الموَدِّعُ

وباتت تشتكي تحت رحلي ضمانةً ، كلانا ، إذاً ، يا ناق نِضْوٌ مُفَجَّعُ ([1])

ففي هذه الأبيات يذكر الرضي الناقة وهي معلم من معالم البداوة التي كثيرا ما ذكرت وتغنى بها الشعراء في جميع العصور فالرضي يذكرها ويستخدمها من خلال حنينه وشوقه إلى أماكن بعينها فيعبر عن مدى شوقه وشوق هذه الناقة إلى الترحال .

ونجد أيضا في حجازياته تداول الكثير من لفظ الظباء وتشبيه هذا الحيوان الصحراوي البدوي الرقيق بمحبوباته ، كما نجد توارد ذكر هذا الحيوان في كثير من شعر الشعراء قديما وحديثا ، فيقول الرضي وهو يذكر أصحابه بذكر اسمه لبعض محبوباته :

وتعمّد ذكْرِي ، إذا كنت بالخيـ ـف ، لظبيٍ من بعض تلك الظبّاءِ ([2])

---

[1] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٦٥٣ .

[2] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٣٥ .

فالرضي في هذا البيت يحدث أحد أصحابه المسافر إلى الحجاز فيقول له تعمد ذكري وأنت في تلك البقعة المقدسة لكي تتعرف عليّ تلك الظبية .

ويقول أيضا وهو يشبه محبوباته بالظباء التي تكون مرفوعة الرأس فتكون ذات عنق طويل :

عطون بأعناق الظباء ، وأشرقت وُجُوهٌ عليها نضْرَةٌ ونعيمُ

أمطن سُجُوفا عن خُدُودٍ نقِيّةٍ صَفَا بَشَرٌ منها ورق أديم

شفوف على أجسادهنّ رقيقةٌ ، ودُرٌّ على لبّاتهنّ نَظيمُ ([1])

فالرضي في هذه الأبيات يتغزل ويشبه محبوباته بالظباء ثم ينتقل إلى وصف هذه الظباء إذا نحين الستر على وجوههن نجدهن ذات خدودٍ نقيةٍ ، وشفاههن رقيقة ثم يصف موضع القلادة التي تعلق على الصدر .

ونلاحظ أيضا أن الرضي قد صور الخيل في حجازياته بأنه لديه القدرة والقوة في الحرب ، وذلك لأن الخيل له دور مهم في حياة البدوي فهو ملازم له في حله وترحاله وفي يسره وعسره وفي سلمه وغزواته وفي الصيد والطرد ، وأيضا أن البدوي كان يعلم أبناءه منذ طفولتهم ركوب الخيل والفروسية والتدرب على خوض المعارك ويلقنهم عدة مهارات منها الفروسية وترويض الخيل فيقول الرضي وهو يصف الخيل :

الخيل ترتشق الصعيد نسورها طردا ، وتلفظُه على الأكتاد

أقبلن مثل السيل صوب عنقه نشز العقاب إلى قرار الوادي

وتكاد تمسح من دماء جراحها آثار ما نقشت على الأطواد

ترجيع قعقعة الشكيم إذا سرت لعداتها ، بدل من الإيعاد

يوم كأن الأرض فيه عانقت صدر السّماء بعارضٍ منقادِ ([1])

[1] ديوان الشريف الرضي ، جـ ٢ ، صـ ٣٣٢ .

فالرضي في هذه الأبيات يصف الخيل بأن لها القدرة على خوض الحروب فيشبه ارتفاع بواطن حوافرها من شدة القوة وكأنها مثل النسر الذي يحلق في السماء من قوة هذه الخيول حتى أن الإنسان الذي يركبها ترتفع أكتافه من شدة الجري ، فكل هذه الأوصاف والسمات التي أعطاها الرضي للخيل تعد من السمات البدوية التي يتمتع بها هذا الحيوان المرافق للإنسان في حله وترحاله وفي كره وفره وفي حربه وسلامه .

وهناك أيضا ذكر العديد من الألفاظ البدوية في حجازيات الرضي التي تخص الحيوانات فمنها :

" الظباء ، ناقة ، ذئب ، نسر ، عقاب ، اليربوع ، الطير ، فرس ، الخيل ، عصفور ، نعام ، المها ، الإبل ، الخشف " ([2]) .

في مجال لأوصاف الحيوانات وأصواتها :

الناظر إلى حجازيات الشريف الرضي يجد فيها العديد من أوصاف الحيوانات الصحراوية والبرية البدوية وكذلك يجد فيها العديد من أصوات الحيوانات ، فمن هذه الأوصاف المصعب في قول الرضي :

وإذا دعوت أجبن غير شوامس ، زفف النياق إلى رغاء المصعب ([3])

فالمصعب وهو الفحل من الإبل فيشبه الرضي نفسه عندما كان شابا وكأنه مثل الفحل الذي ينادي برغائه النوق فيأتين مسرعات .

ومن أوصاف الحيوانات في حجازيات الرضي الطليّ الأجرب :

فاليوم يلوين الوجوه صوادفا ، صدّ الصحاح عن الطليّ الأجرب ([1])

---

[1] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٣٤٠ .

[2] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٣٥ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٣٤٠ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، جـ ٢ ، صـ ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٨٢ ، ٥٦٤ .

[3] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ١٨١ .

فالطلي الأجرب وهو البعير الأجرب ، فيشبه الرضي نفسه عندما كبر وكأنه مثل الطلي الأجرب فظللن الحسناوات يتبعدن منه لأنه قد كبر ولم يعد يصلح لأي شيء .

ومن أصوات الحيوانات الموجودة في حجازيات الشريف الرضي (عجيج وبغام) في قوله :

من ألال حفزوا العيـ ـس كما ريع النعام

فزفير ، ونشيج ، وعجيج وبغام ([2])

فالعجيج والبغام وهو أصوات الظباء والإبل .

وهناك العديد من أوصاف الحيوانات وأصواتها التي نجدها تتجلي في قصائد الحجازيات فمن هذه الأوصاف والأصوات :

" النضو ، المصعب ، الظعنات ، الثلب ، الهمام ، مسيم ومسام ، الطلي ، نصصت ، العجيج ، البغام ، الرغاء " ([3]) .

في مجال المعركة :

نجد في حجازيات الشريف الرضي الكثير من ذكر أدوات المعارك ، التي يستعملها المحارب والفارس عند خوض المعاك ، وما يحدث فيها ، وما ينتج عنها ، ومن المعلوم أن البدو في تلك العهود كانوا لا يتخلون عن سلاحهم فدائما يكون الرجل جاهزا للغزو أو القتال فتكون السيوف مصطحبة له أينما يذهب وحيثما يبقى فلا يترك سيفه وسلاحه حتى أثناء النوم يكون بجانبه ولا يفارقه ، فالرضي قد صور نفسه أنه في حرب دائما فكانت ألفاظه تدل على ذلك ولكن مع كل هذا فإن هذه الألفاظ أتت من مخيلة الرضي ليعبر عن مدى عشقه للفروسية وحياة البادية وأنه مستعد في كل لحظة وحين أن يقتنص ظبية والمقصود بالظبية هنا هو رمز يرمز به كثيرا في حجازياته على وصف محبوبته ومن هذه الألفاظ (الحبل والسيف) في قوله :

---

[1] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ١٨١ .

[2] ديوان الشريف الرضي ، جـ ٢ ، صـ ٢٨٢ .

[3] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ١٨١ ، جـ ٢ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٤٧٤ ، ٤٨٥.

لا ذراعي رخوةُ الحبـ ـل ، ولا السيف كهام ([1])

فالرضي في هذه الأبيات يتخيل نفسه وكأنه في معركة ، فيصف نفسه بأنه فوق جواده ماسكا حبل فرسه بيده وماسكا سيفه باليد الأخرى ليقارع الأعداء فهذا دليل على البداوة التي يتميز بها الرضي من خلال التغني بفروسيته وشجاعته في منازلة الفرسان .

ومن الأشياء التي تحدث أثناء المعارك (القنص) فيقول الرضي واصفا نفسه :

أيها القانص ما أحـ ـسنت صيد الظبيات

فاتك السرب ومازُوّ دْتَ غير الحسرات ([2])

فالرضي يصف نفسه بأنه لم يعد قادرا على صيد الظبيات وهو رمز كثيرا ما يرمز به لمحبوباته فهو لم يستطع صيد أو قنص هذه المحبوبة التي لطالما انتظرها فلم يزود غير الحسرات والحزن والألم لفقده الفرصة التي أُتيحت أمامه لصيد ما يريد من السرب المار أمام عينيه .

ومن الأدوات التي يستعملها البدوي أثناء خروجه من بيته أو إلى الصيد أو الحرب (الدرع والنبل والسهم) فيقول الرضي متحدثا إلى الغزال :

يا غزالا بين النقا والمصلى ! ليس تبقى على نبالك درعي

كلّما سُلّ من فؤادي سهمٌ ، عاد سهم لكم مضيض الوقعِ ([3])

---

[1] ديوان الشريف الرضي ، جـ ٢ ، صـ ٢٨٥ .

[2] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٢١٨ .

[3] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٦٥٨ .

من المعلوم أن الدرع والنبل والسهم أدوات يستعملها المحارب أثناء المعركة أو أثناء صيده فاستعملها الرضي من خلال شوقه وحنينه إلى أرض الحجاز وما فقده فيها من محبوبات أثناء سفرياته إليها ، ويحدث الرضي محبوبته بأنه لم يعد درعه له القدرة على صد نبال محبوبته ، فكلما سلّ من فؤاده سهم عاد سهم ليصيبه من جديد فيكون هذا السهم قد قضى عليه فيصبه بداء الحب والغرام .

وهناك أيضا بعض الألفاظ الأخرى التي تتحدث عن المعركة وما يحدث فيها فمن هذه الألفاظ :

" القنص ، الفريسة ، الموت ، الحرب ، الرامي ، سهم ، الحبائل ، الحمى ، القوس ، نبل ، درع ، الحرب ، السيف ، أقعصه ، الحِمَام " ([1])

في مجال الألفاظ التي تتحدث عن المرأة البدوية ولوازمها وسماتها :

تختلف نظرة الشريف الرضي للمرأة عن غيره من الشعراء الذين ينظرون للمرأة على أنها متاع للذة والمتعة فقط ، وتوجههم إلى الجانب المادي من الحب فقط ، ومن هنا اختلفت نظرته عن غيره من الشعراء العذريين الذين يميلون إلى ذكر الهم والغم والحزن والكمد ولا يهتمون بالمشاعر والأحاسيس والرقة التي تحتاجها المرأة من خلال وصفها على أنها مجال للحب والعشق ، فالرضي تغزل بالمرأة " فكوى القلوب بنار العشق ، وأعلى محل المرأة ، ووصف جمالها ، ووصف فطابق وصفه خصال موصوفه " ([2]) .

و " المرأة في حس الشريف ، إنسانة تُحِب ، بمقدار ما تُحَب ، أو هي أكثر شغفاً ، وأغنى روحاً :

لكِ الله من مطولة القلبِ بالهوى قتيلة شوقٍ والحبيبُ غريبُ

[1] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٢١٨ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٥١١ ، ٥٩٣ ، ٦٥٢ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٨ ، جـ ٢ ، صـ ١٠٧ ، ٢٧٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٤٧٤ ، ٤٨٥ ، ٥٦٢ ، ٥٧١.

[2] الشريف الرضي حياته ودراسة شعره ، جـ ٢ ، صـ ٢٠٩ .

يقولون مشغوفُ الفؤاد مروّع ومشغوفة تدعو به فيُجيبُ

ها هي العذرية تطلّ على حقيقتها في علاقة الرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل " ([1]).

وفي حجازية أخرى نجد وصف الرضي للعيون الساحرة فيقول :

عارضاً السرب فإن كان فتىً بالعيونِ النجلِ يقضي ، فأنا

إنْ مَنْ شاط على ألحاظها ، ضعفُ مَن شاط على طول القَنَا ([2])

فالرضي " شأنه مع المرأة : تحبه ويحبها، ويتذكرها وتتذكره ويأنس بحديثها، ويفرح بجمالها جسداً وروحاً ويود عن الأشياء من حوله. ولا شيء غير ذلك " ([3])

وهناك العديد من الألفاظ البدوية التي تتحدث عن المرأة ولوازمها وسماتها في حجازيات الرضي فمنها :

" هوى ، جلابيب ، مختمرات ، عاطلات ، العيون النجل ، البدنات ، الفتيات ، هجر ، أعين ، خدود ، نارهن ، ماطلات ، ريق ، بدر ، الصدغين ، المطرق ، السّوار ، القلائد ، الخمائل ، ثناياك ، اللطيمة ، الحسناء ، اللبنات ، البيض الحسان ، عطون ، أعناق ، خدود نقية ، شفوف ، خلاخيل ، العذراء ، يلجلجن " ([4]) .

ونراه يتغنى بالظبيات وينشد أحلى الأنغام التي تبين الملبس التي تلبسه المرأة البدوية فيقول :

من معيد لي أيا مي بجزع السمرات

ولياليّ بجمع ومنًى والجمرات

---

[1] شعراؤنا القدامى ، الشريف الرضي ، دراسة و مختارات ، صـ ٥٣ .

[2] ديوان الشريف الرضي ، جـ ٢ ، صـ ٤٨٧.

[3] شعراؤنا القدامى ، الشريف الرضي ، دراسة و مختارات ، صـ ٥٤.

[4] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ١٧٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٣٣٦ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٥٠٤ ، جـ ٢ ، صـ ٦٧ ، ٧٧ ، ١٠٧ ، ٢٢٣ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٣٣٢ ، ٥٧١ ، ٤٨٥ .

وظباءً حاليات ، كظباءٍ عاطلات

رائحاتٍ في جلابيـ ـب الدجى مختمرات

راميات بالعيون الـ نُّجل قبل الحصيات ([1])

يتسأل الرضي هل ستعود له تلك الأيام الخوالي التي كان يسافر فيها على رأس البعثة المكلف بها أثناء أداء فريضة الحج وهل سيلتقى من جديد بالظباء العاطلات ، أم أنه صار حلم يدور في مخيلة شاعرنا الفذ ، ومن ثم يبدأ بوصف المرأة البدوية وهي بالأماكن المقدسة من خلال لباسها الجلباب والخمار الذي لا ينظر منه سوى العينين الكبيرتين فقط ، فالجلباب والخمار أحد لوازم المرأة البدوية من خلال ملبسها فهي تتميز به عن غيرها من النساء فتكون محتشمة من خلال لباسها المحتشم .

وفي معجم الواقع الاجتماعي للشاعر :

نجد في حجازيات الرضي بعض الألفاظ التي تدل على الحياة التي يعيشها البدوي من خلال الترحال وطلب الماء والسعي وراء المعيشة التي كان الناس في ذلك الوقت يتبعونها من الرعي والصيد وغير ذلك من حياة البدو من حب للخيام والكرم والجود والشجاعة ، فهذه هي الصفات البدوية التي كانت يتحلى بها كل بدوي ينشأ على هذا المنحى من الحياة الكريمة التي توفر له السعادة والاطمئنان دون الخوف من المستقبل فهو لا يفكر في مستقبله وإنما دائما يقتات قوت يومه ولم يكن مستقرا في مكان وإنما دائما طالبا للرزق من خلال اتباع الماشية التي تتطلب وجود الماء ومنبت العشب حيث يكون الجو الهادئ ، والتفكير العميق ، وقول الشعر ، والتغني بمواطن الجمال .

" الجلباب ، الخمار ، الرحال ، العمامة ، الكرم ، ورد الماء ، الغلة ، الفتى ، الفتاة ،الركب ، الخيام ، الضمانة ، هنية العيش ، الطعن ، الحب ، الحمى ، الحي " ([2]) .

---

[1] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٢١٧.

[2] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٣٤٠ ، جـ ٢ ، صـ ١٠٧ ، ٢٧٣ ، ٢٨٤ ، ٤٧٤ ،٤٧٥ ، ٥٠٥ ، ٥٦٢ ، ٥٧٠.

الترادف اللفظي :

وهي ظاهرة لغوية يحتاج فيها القارئ إلى معرفة باللغة ؛ وذلك لما يواجهه من مشاكل تعدد المسميات ، فهي ظاهرة تدل على " اتحاد المسمى واختلاف أسمائه كقولنا: الخمر ، والراح ، والمدام ؛ فإن المسمّى بهذه الأسماء شيء واحد ، وأسماؤه كثيرة " ([1]) .

فتدل هذه الظاهرة على مرونة اللغة وقدرتها على مساعدة الأديب في النظم أو النثر " ليجد إذا ضاق به موضع في كلامه بإيراد بعض الألفاظ سعة في العدول عنه إلى غيره ، مما هو في معناه " ([2]) .

وبالنظر إلى حجازيات الشريف الرضي نجد هذه الظاهرة موجودة في بعض قصائده فمنها ما يتعلق بظواهر الطبيعة الصحراوية وطبيعتها الجغرافية وما تتصف به البداوة ومن أدوات المعارك فمنها :

السيف :

" المقضب ، البيض ، القنا ، العضب ، حسام ، الكهام " ([3]) .

الأسد :

" العادي ، الهمام " ([4]) .

الحزن :

" الكمد ، ألم الجوى " ([5]) .

---

[1] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، جـ ١ ، صـ ٣٧.

[2] المثل السائر ، جـ ١ ، صـ ٣٧.

[3] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ١٨٢ ، ٣٣٩ ، جـ ٢ ، صـ ٢٨٤، ٢٨٥.

[4] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٣٤٠ ، جـ ٢ ، صـ ٢٨٤.

[5] ديوان الشريف الرضي ، جـ ١ ، صـ ٥٦٣ ، ٦٥٢ .

ومن خلال ما تقدم من ذكر لمعاجم الألفاظ المختلفة التي وردت في حجازيات الشريف الرضي الدالة دلالة واضحة على البداوة وما يميزها من جميع مناحيها سواء أكانت طبيعية أم مصطنعة من البدو أنفسهم فهذه الألفاظ نجدها متكررة كثيراً في حجازياته وخاصة الألفاظ الدالة على الحب والشوق وذات الطبيعة الغزلية التي يتغزل بها بوصف المحبوبة فنجده يرمز لها كثيرا برمز الظبية فهو يشبهها بها ؛ لأنها ربما تحمل نفس الصفة التي تحملها المرأة الدالة على الأنوثة والرقة والجمال الطبيعي الذي يجعل من ينظر إليها يعشقها ويتغنى بها تارة ويرمز بها تارة أخرى ، كما نجده أيضا ذاكرا لبعض الألفاظ التي تتحدث عن الحياة الاجتماعية التي يعيشها البدوي من خلال مأكله ومشربه وتعامله مع الواقع الاجتماعي من حوله سواء من ذكره لأهم سمات البداوة وهي الحيوانات الصحراوية وأوصافها وأصواتها أو الطيور البرية التي تعد إحدى أهم سمات البداوة أوالحشرات وذكره أيضا لبعض الألفاظ التي يتسم بها كل البدوي من التحلي بالفروسية والشجاعة والكرم والإقدام ، أو من خلال ذكره للبيئة البدوية بما فيها وصف للطبيعة بما فيها مش أشجار وأوراق وأغصان وكثبان رملية وأعشاب ذات رائحة طيبة ، ووصف للعوامل المتغيرة الكونية من رياح ونجوم وكواكب وشمس وقمر وبرق ورعد ، فكل هذه الألفاظ نجدها في حجايات الشريف الرضي دالة دلالة واضحة على البداوة التي عاش شاعرنا في كنفها من خلال سفرياته العديدة وملاقاته العديد من أهل البادية وحبه لهم ومقامه عنده ، فالرضي محب للطبيعة البدوية بما فيها من خيام وسكان فهو يعشق البادية بكل معالمها وبالأخص محبوباته فنراه يعبر عما يدور في مخيلته من أفكار وأحاسيس فيصورها في أصدق تصوير .